الجوانب المالية في السيرة الصِّدِّيقِيَّة: آثار الصديق ومواقفه واجتهاداته في المال والاقتصاد

'The Financial Aspects of the Siddiqi Biography: His Implications, Attitudes, and Jurisprudence in Finance and Economy'

د. سفيان شطار: أستاذ باحث بأكاديمية الدار البيضاء، سطات، المملكة المغربية

Dr. Soufiane chattar: A lecturer at the Academy of Casablanca, Settat Morocco

Email: Chattar.sf1988@gmail.com

الملخص:

يحاول هذا البحث بيان الجوانب المالية والفلسفة الاقتصادية في السيرة العطرة لأبي بكر الصديق، من خلال دراسة مواقفه وآثاره واجتهاداته المتعلقة بالمال والاقتصاد في مختلف أطوار حياته، جاهلية وفي العهد النبوي وأيام خلافته، مع الاهتداء بتلكم الجوانب في ترشيد وتأطير المجال المالي والاقتصادي، ليتوصل البحث إلى مجموعة من النتائج من أهمها: مبدأ الاستخلاف الموجه الأساس لسيرة أبي بكر المالية، بنيت فلسفة الصديق المالية على ركائز منها الاحتساب والرحمة والزهد والتوازن والعلم، بنى الصديق رؤيته المالية على نصوص الوحيين، متشبعة بروح الشريعة ومقاصدها، محكومة بالزهد والورع، وموازية بين النظرة إلى المال باعتباره شهوة وفتنة واعتباره قواما للحياة ولبناء الدولة، للأخلاق دور عظيم في توجيه وتأطير المجال المالي خصوصا والنشاط الاقتصادي عموما.

الكلمات المفتاحية: أبو بكر الصديق، الخلفاء الراشدون، الجوانب المالية، الفلسفة الاقتصادية، الإدارة المالية.

Abstract:

This research deals with the financial aspects and economic philosophy in the biography of Abu Bakr Al-Siddiq, may God be pleased with him, by studying his attitudes, impacts, and jurisprudence regarding finance and economy throughout his life (the pre-Islamic period, the Prophet's era and during his mandate), guided by those aspects in rationalizing and framing the financial and economic field, leading, accordingly, to a range of results, the most important of which are: The principle of succession is the basic guide of Abu Bakr's financial biography, Al-Siddiq's financial philosophy is built on pillars including computation, compassion, asceticism, balance, and knowledge. Al-Siddiq built his financial vision-based on the texts of the revelation, imbued with the spirit and purposes of the Islamic law, directed by asceticism and piety. It was also grounded on equally perceiving money as lust and sedition, as well as

a basis of life and a means that helps building the state. Ethics have a major role in guiding and framing the financial field in particular and economic activity in general, but if the financial world is disposed of morality, it becomes an image of authoritarianism and a source of crises. The duality of money and ethics in the philosophy of Abu Bakr Al-Siddiq during the pre-Islamic and the Islamic period is a role model, especially in our time.

Keywords: Abu Bakr Al-Siddiq, biography, financial aspects, economic philosophy, financial management.

المقدمة:

"الصديق" هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يصف أبابكر عبد الله بن أبي قحافة التيمي فأعظم به من توصيف، وأكرم به من تعريف، إشادة عظيمة وثناء، ومدح جليل وإطراء، وبيان لعظيم فضله رضي الله عنه، وجليل قدره، وعلو مكانته، ذلكم أن الصديقية أعلى مراتب الإيمان، وأجل مقامات الإحسان، وأرفع منزلة بعد النبوة ينزلها قلب إنس أو جان، فالصديق الولي هو من كان كامل الانقياد للنبي صلى الله عليه وسلم مع كامل الإخلاص للعلي سبحانه. ويكفي أبا بكر فخرا أنه ما ذكر نعت "الصديق" في هذه الأمة بلا قيود إلا كان المقصود.

وأنت تتجول في رياض سيرته العطرة رضي الله عنه ترى بما لا تخطئه العين، فضلا غير خفي، وسبقا ظاهرا جليا، وأخلاقا كريمة، ومتابعة لنصوص الوحيين واعتصاما، وعلما وافرا يهتدى به ويفزع إليه عند الاختلاف، ونظرة متفرسة وفكرا وقادا يلاذ بهما عند الحيرة والتيه، وقوة شكيمة عند الزلزلة، وثباتا على الحق ملهما عند الخطوب والمدلهمات... فلا يملك من أراد الاقتداء والاهتداء والفلاح والنجاح في الدارين إلا أن يعض بالنواجذ على سيرة هذا الصديق الماجد، متتبعا أنوارها السنية ومعالمها الهادية الرضية، وذلكم لعمري من حقوق نبينا صلى الله عليه وسلم علينا: أليس صاحبه وصهره وخليفته وخله.

ومن حقوق تاريخنا علينا: أليس أبو بكر من ثبت الله به الدين وجمع به المسلمين بعدما كادت فتنة الردة ترد الناس عن الحق وترديهم، وبنى به الله للإسلام دولة قوية الأركان عظيمة البنيان.

ومن حقوق تراثنا علينا: فهو الذي ترك تراثا من المواقف والاجتهادات والرؤى السنية في شتى الجوانب العلمية وجبت العناية بها وخدمتها. ومن تلك المجالات المجال الاقتصادي والمالي، فالمتأمل في سيرة الصديق رضي الله عنه يجد للرجل رؤية مميزة للمال من حيث مفهومه و طرق كسبه وإنفاقه وتدبيره، رؤية مستمدة من نصوص الوحيين، متشبعة بروح الشريعة ومقاصدها، محكومة بالزهد والورع، وموازية بين النظرتين الدنيوية والأخروية له.

مشكلة الدراسة:

تتمثل مشكلة الدراسة في تتبع الجوانب المالية في حياة أبي بكر الصديق قبل البعثة وخلالها وبعدها، ومن هنا يمكن التعبير عن المشكلة البحثية بالسؤال التالي: كيف أدار أبو بكر الصديق الجوانب المالية في مراحل حياته المختلفة؟

منهج الدراسة:

اعتمد الباحث على المنهج الاستقرائي تتبعا لمواقف أبي بكر الصديق وآرائه في الجانب المالي من كتب التراجم والتاريخ والفقه. وكذلك المنهج الاستنباطي بهدف وضع معالم لفلسفة الصديق المالية من خلال مواقفه وآرائه واجتهاداته.

هيكل البحث:

- الجوانب المالية في سيرة أبي بكر في فترة الجاهلية.
- الجوانب المالية في حياة الصديق في العهد النبوي (من إسلامه إلى مبايعته).
- الإدارة المالية لأبي بكر الصديق أثناء خلافته.
- الخاتمة والنتائج

أولاً: الجوانب المالية في سيرة أبي بكر في فترة الجاهلية:

لقد ولد أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة التيمي في مكة بعد سنتين من عام الفيل، ونشأ في بيئة قرشية يقوم نشاطها الاقتصادي على التجارة، فهم أصحاب رحلتي الشتاء والصيف، وهم أهل الحرم مقصد العرب للتعبد والتسوق، فكان حاله كحال معظم سادة قريش وذوي الشرف فيهم الذين اتخذوا من التجارة مصدرا لغناهم وثرواتهم، فبرز في تجارة الثياب، [1] إلا أنه لم يكن على سنن كثير من تجار الجاهلية، فقد عرف بخلقه الرفيع وأدبه الجم مع رقة الطبع، مما أكسبه سمعة أسهمت في رواج تجارته وازدياد ثروته، وإقبال الناس عليه وتقديمه على من سواه.

وقد عرف العرب عامة وأهل مكة خاصة نوعين من التجار: تجار يبتغون بتجارتهم إذلال العباد وفرض النفوذ وبسط السيطرة، كتجار بني مخزوم أمثال أبي جهل عمرو بن هشام، وعدل قريش الوليد بن المغيرة الذي أذل رباه رقاب الناس، وهذا الصنف هم (الكبراء والمترفون بالاصطلاح القرآني). وصنف ثان من التجار يحسنون إلى الناس، ولا يزيدهم غناهم إلا تواضعا وقربا ممن هم دونهم، كتجار بني تيم قبيلة الصديق التي وإن كانت من أضعف بطون قريش إلا أن "جل رجالهم تميزوا بالأدب الجم والخلق الرضي، كما اشتهرت نساؤهم بمخايل الحسن والنضارة، فقيل: إن بنات تلك القبيلة كن أول النساء وأحظاهن عند الأزواج، وربما كان مرجع ذلك إلى طول عهد القبيلة بحياة المدنية، وأن انشغالها بالتجارة كان يقوم على المودة وحسن المعاملة ولا يقوم على بسطة النفوذ وسلطة الغلبة"[2].

لقد كان العرب في الجاهلية يعظمون مكارم الأخلاق ويفخرون بالاتصاف بها فقد ساد العرب رجلان شجاع بسيفه وخلوق بحلمه، وهو ما تدل عليه قصائدهم والشعر ديوان العرب، وقد بين صلى الله عليه وسلم أن أحد مقاصد بعثته تتميم وإكمال وتقويم تلك الأخلاق فقال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق[3]." وقد كان أبو بكر في جاهليته مثالا للخلق الكريم يكسب ماله دون مخاتلة وخديعة

[1] - ينظر: الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء (الخلفاء الراشدون) تحقيق: بشار معروف عواد، ط 2، مؤسسة الرسالة، 14/28/2001.

[2] - العقاد: محمود عباس، عبقرية الصديق، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، 2011م، ص 15.

[3] - رواه البخاري في الأدب المفرد رقم 273 وأحمد في المسند رقم 8939، قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم 318/2.

وينفقه في الإحسان للناس، حتى قال فيه ابن الدَّغِنَة[4] سيد قارة عندما خرج من مكة فرارا بدينه: إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتكسب المعدوم، وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر، وتقري الضيف[5]، وهذا الوصف نظير ما وصفت به خديجة النبي صلى اللَّه عليه وسلم لما بعث، فتواردا فيهما على نعت واحد من غير أن يتواطئا على ذلك، وهذا غاية في مدحه، لأن صفات النبيّ صلى الله عليه وسلم منذ نشأ كانت أكمل الصفات.[6]

وإن استحضار أبي بكر البعد القيمي في تجارته وتصرفاته المالية وبط الحركة الاقتصادية بالخلق الحسن جبلة وفطرة، هي التي جاء الإسلام للدعوة إليها، فقال صلى الله عليه وسلم "التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء[7]"، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن التزم بالأخلاق في عملية البيع والشراء فقال صلى الله عليه وسلم: "رحم الله رجلاً سمحاً، إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى[8]"، وقد أخرج النبي صلى الله عليه وسلم الغاش عن المهتدين بسبيله فقال متوعدا "من غش فليس مني[9]". هذه النصوص وغيرها التي أسست لنظام مالي إسلامي يروم الغايات الأخلاقية وتأطير القيم للإنتاج والربح المادي، فإذا ما غابت الأخلاق عن حسابات رجال المال والاقتصاد فانتظر أصنافا من المعاناة، وأوجها للتسلط، وتعددا للأزمات التي تحرق بلهيبها ملايين الناس، وها ما نراه في عالمنا المعاصر اليوم من التوحش في طلب الأرباح مع التجرد عن الأخلاق قاد العالم إلى مآسي "فثلث العالم يعيش في فقر، وخمسه تحت الصفر، ومئات الملايين يموتون جوعا، أو لا يجدون ما يسدون به رمقهم من الدواء والغذاء، ولقد أظهرت الأزمات المالية التي عاشها العالم عبر مراحل ومحطات أن من أهم أسبابها هو السلوكيات غير السوية من جانب المتعاملين في المجال المالي مثل الطمع والجشع والفزع والهلع، إلى جانب الممارسات غير الأخلاقية التي استشرت في المؤسسات والأسواق المالية مثل الفساد والمعلومات المضللة والكذب والاحتيال، وكان الدافع الرئيس للمتعاملين في البورصات أو الأسواق المالية هو المضاربة

---

[4] - بفتح المهملة وكسر المعجمة وخفة النون على مثال الكلمة ويقال بضم الدال والغين وتشديد النون. وبالوجهين، ينظر: الكرماني: محمد بن يوسف، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1981م، 126/10.

[5] - رواه البخاري في كتاب الكفالة والحوالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعقده، رقم 2176.

[6] - العسقلاني: أحمد بن علي "ابن حجر"، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1415 هـ، 149/4.

[7] - رواه ابن ماجه في سننه , كتاب التجارات , باب الحث على المكاسب رقم 2139.

[8] - رواه البخاري في كتاب البيوع باب السهولة والسماحة في الشراء رقم 2076.

[9] - رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: من غش فليس منا رقم 102.

للحصول على فروق الأسعار وليس الاستثمار في الشركات، وأن البنوك تسعى إلى حصد مزيد من الفوائد بتدوير القروض مرة بعد أخرى، ويدفعهم إلى ذلك الطمع والجشع لتحقيق مزيد من الأرباح لأنفسهم على حساب الآخرين [10].

وكما أن عالم المال لا يستقيم بلا أخلاق، فإن للمال أهمية وأثرا في الجانب الأخلاقي، فمن المؤكد أن المال يشكل أحد مقومات التوازن لحياة الناس وترسيم الاعتدال الاجتماعي كمسألة الديات، التي هي نوع من الشرائع كانت عند العرب قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام فأقرها وقومها، هنا أيضا وحيثما كانت العلاقة بين الخلق والمال ترى أبا بكر الحلقة الثالثة "فإليه كان أمر الديات والغرم"[11] في الجاهلية، يقول ابن عبد البر:" وكان فِي الجاهلية وجيها رئيسا من رؤساء قريش، وإليه كانت الأشناق فِي الجاهلية، كان إذا حمل شيئا قالت فيه قريش: صدقوه وأمضوا حمالته[12]، وحمالة من قام معه أبو بكر، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدقوه"[13]. وكيف لا يصدقونه وهو الذي كان الصادق غير المتهم في مروءته، حتى أنه قد حرم على نفسه الخمر في الجاهلية[14]. قال النووي: وكان من رؤساء قريش في الجاهلية وأهل مشورتهم ومحببا فيهم وأعلم بمعالمهم[15] . وهذا ما جعله داعية متميزا إذ بمجرد أن أسلم، أسلم على يده جماعة لمحبتهم له، وميلهم إليه، فخمسة من العشرة أسلموا على يديه[16] وهم الزبير، وعثمان، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف[17] .

كانت هذه بعض الإشارات والوقفات مع سيرة أبي بكر المالية في فترة الجاهلية، وبعد أن أشرقت الأرض بأنوار القرآن وأضاءت بهداياته، سيكتب الصديق بحبر لا يجف ولا ينمحي على

---

[10] - محمد عبد الحليم عمر، "قراءة إسلامية في الأزمة المالية العالمية"، المركز اللبناني للدراسات والأبحاث، عدد 22 اكتوبر 2008.

[11] - ابن عساكر: علي بن الحسن، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415 هـ 1995 م، 335/30.

[12] - الحمالة: الغرم تحمله عن قوم ونحو ذلك، ينظر: ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، ط3، دار صادر، 1414هـ 180/1.

[13] - ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412 هـ - 1992 م، 966/3.

[14] - المصدر نفسه 819/2

[15] - النووي: محيي الدين يحيى بن شرف، تهذيب الأسماء واللغات، بيروت دار الكتب العلمية، 1998م، 183/2.

[16] - ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين، أسد الغابة، بيروت، دار الفكر، 1409هـ - 1989م، 206/3.

[17] - ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله النمري، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط1، بيروت دار الجيل، 1412 هـ - 1992م، 966/3.

صفحات تاريخ الإسلام، أنه رجل العطاء والإنفاق في هذه الأمة بعد نبيها عليه الصلاة والسلام، وقد عنون السيوطي فصلا من كتابه تاريخ الخلفاء ب: فصل في إنفاقه في سبيل الله، وأنه كان أجود الصحابة[18].

ثانياً: الجوانب المالية في حياة الصديق في العهد النبوي (من إسلامه إلى مبايعته

الفترة المكية:

لم تغب شمس أول يوم من البعثة حتى كان أبو بكر أول رجل يصدق النبي صلى الله عليه وسلم ويومن بدعوته، أسلم بلا تردد ولا شك، فعن الشعبي قال: سألت ابن عباس: من أول من أسلم؟ قال: أبو بكر، أما سمعت قول حسان[19]:

إذا تذكرت شجوا من أخي ثقة... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أتقاها وأعدلها... بعد النبي وأوفاها بما حملا

الثاني التالي المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدق الرسلا

أسلم أبو بكر وهو يعي أن الإسلام معناه وركنه الانقياد التام لأوامر الله ونواهيه وغاية الاستسلام، كما أدرك أنه قد دخل في أمر دونه ابتلاءات ومحن، وعداوات وإحن، فوطن نفسه على بذل الغالي والنفيس في سبيل الدعوة إلى الإسلام فسخر نفسه وماله وولده لذلك.

وأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته فأوذي وأصحابه، وكان للمستضعفين من العبيد والإماء والموالي منهم الحظ الأوفر من التنكيل والتعذيب، فبذل أبو بكر ما يملك من تليد ونفيس مواساة لهم، فكان يعتق الأرقاء من المسلمين ويعولهم، وما يمر بأحد العبيد يعذب بسبب إسلامه إلا اشتراه وأعتقه ابتغاء وجه ربه الأعلى. فعن عروة بن الزبير عن أبيه قال: أسلم أبو بكر وله أربعون

[18]- السيوطي: عبد الرحمان بن أبي بكر جلال الدين، تاريخ الخلفاء تحقيق: حمدي الدمرداش، ط 1، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1425هـ 2004م، ص 34.

[19] - ابن أبي شيبة، المصنف، كتاب المغازي، باب إسلام أبي بكر رضي الله عنه، رقم 37739.

ألفا، فأنفقها في الله، وأعتق سبعة كلهم يعذب في الله: أعتق بلالا، وعامر بن فهيرة، وزِنّيرَة[20]، والنهدية، وابنتها، وأم عبيس وجارية بني مؤمل[21].

إنها كلمة " لا إله إلا الله" كلمة التوحيد الطيبة استقرت في قلب الصديق وثبتت، فأثمرت هذا الإنفاق والجود، وهل الصدقة إلا ترجمان لصدق الإيمان ألم يقل صلى الله عليه وسلم: "الصدقة برهان"[22].

وإذا ما استقرت لا إله إلا الله في نفوسنا، علمنا أن ما في أيدي البشر من ملك الله، وإنما هو عارية ينتفع بها البشر ثم تعود لصحابها طوعا أو كرها، أدركنا غير متعجبين كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي في مال أبي بكر كما يقضي في مال نفسه[23] برضى بل بحب من أبي بكر فما أخذ النبي صلى الله عليه وسلم من ماله كان أحب إليه مما ترك. فعن عائشة: أن أبا بكر أسلم يوم أسلم وله أربعون ألف دينار فأنفقها على رسول الله صلى الله عليه وسلم [24]. وأدركنا أن أبا بكر بنى نظرته للمال على ما يقتضيه مبدأ الاستخلاف " المال مال الله ونحن مستخلفون فيه"، وإليك هذه الدرة من عقد المواقف العظيمة لهذه الشخصية الكريمة رضي الله عنه، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر. فبكى أبو بكر وقال: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟[25].

وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله.

خلال الهجرة وفي العهد المدني:

لما أذن الله عز وجل لنبيه بالهجرة إلى المدينة الطيبة، صاحبه أبو بكر الذي نال مناه بمرافقة النبي في هجرته بعد طول انتظار وشوق، فما إن جاءه النبي صلى الله عليه وسلم مخبرا بيوم الهجرة مبشرا بالصحبة، وبعد أن مسح الصديق عن خديه دموع السرور والصدق والحبور، حتى

---

[20] - بكسر الزاي والنون وتشديدها وبعدها ياء ساكنة معجمة باثنتين من تحتها، ينظر: ابن ماكولا: سعد الملك، الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، دار الكتب العلمية، 192/4.

[21] - ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين، أسد الغابة، بيروت، دار الفكر، 1409هـ - 1989م، 223/3.

[22] - رواه مسلم كتاب الطهارة، باب الطهور شطر الإيمان، رقم 454.

[23] - السيوطي: عبد الرحمان بن أبي بكر جلال الدين، تاريخ الخلفاء تحقيق: حمدي الدمرداش، ط 1، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1425هـ 2004م، ص 34.

[24] - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[25] - مسند الإمام أحمد رقم 7563.

قال يا نبي الله: إن هاتين راحلتين كنت أعددتهما لهذا، فخذ بأبي أنت وأمي إحداهما، فقال صلى الله عليه وسلم بالثمن، وكان أبو بكر اشتراهما ب ثمانمائة درهم من نعيم بن قشير، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم إحداهما وهي القصواء[26].

وسخر أبو بكر كل ما وهبه الله من مال وبنين وموالي لإنجاح أعظم رحلة شهدها التاريخ، فاستأجر رجلا من بني عدي يقال له عبد الله بن أُرَيقِط.....وكان ابنه عبد الله يأتيهما حين يمسي بكل خبر يكون في مكة، ويريح عليهما عامر الغنم في كل ليلة فيحلبان ويذبحان[27].

ثم يأبى الصديق رضي الله عنه بعد بلوغهما المدينة إلا أن يجمع شمل النبي صلى الله عليه وسلم بآله الكرام، فيجهز من يأتي ببنات النبي إليه، قالت أم المؤمنين عائشة: لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم خلفنا وخلف بناته، فلما استقر بعث زيد بن حارثة، وبعث معه أبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم أخذاها من أبي بكر يشتريان بها ما يحتاجان إليه [28]

وقد حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر أياديه البيضاء فعن أبي سعيد الخدري قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس وقال: "إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين باب إلا سد إلا باب أبي بكر"[29] وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه إلا أبا بكر، فإن له عندنا يد يكافئه الله بها يوم القيامة"[30].

لقد شهد العهد المدني صورا من الإنفاق والإيثار من لدن صحابة المختار، لولا الأسانيد الصحاح لظنها السامع من نسج الخيال، وكان أبو بكر في الصدر منهم، السباق للخير فيهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه: "من أصبح منكم صائما؟ قال أبو بكر: أنا. قال: من

---

[26] - ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، ط 1، بيروت، دار صادر1968 م، 228/1.

[27] - ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر، السيرة النبوية تحقيق: مصطفى عبد الواحد، بيروت لبنان، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، 235/2.

[28] - ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله النمري، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط1، بيروت دار الجيل 1412 هـ - 1992م، 1936/4و 1937.

[29] - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: سدوا الابواب إلا باب أبي بكر رقم 3454.

[30] - أورده الديلمي في الفردوس رقم 6328، 104/4.

تصدق بصدقة؟ قال أبو بكر: أنا. قال من شهد جنازة؟ قال أبو بكر: أنا. قال: من أطعم اليوم مسكينا؟ قال أبو بكر: أنا. قال: من جمعهن في يوم واحد وجبت له- أو غفر له- "[31].

وفي تبوك العسرة التي سبرت الناس واختبرتهم كان أبو بكر ذاك المعدن النفيس الصافي الخالص من شوائب الشبهة والشهوة، فقد حض النبي الناس على الإنفاق لشح المؤونة وقلة الظهر وبعد المسير وجهد الحال، فحمل أبو بكر من المال وأحسن، وكان أول من بادر بذلك حيث وضع أمام النبي صلى الله عليه وسلم ماله كله، فعن عمر أنه قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق، ووافق ذلك مالا عندي، فقلت، اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته. قال: فجئت بنصف مالي، فقال صلى الله عليه وسلم: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله. وجاء أبو بكر بكل ما عنده، فقال يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسبقه إلى شيء أبدا[32].

القرآن يتحدث عن إنفاق أبي بكر:

لقد أشار القرآن لأبي بكر في غير ما موضع لكن الموضعين الذين لهما علاقة وطيدة بموضوعنا هما:

الموضع الأول: قوله تعالى في سورة الليل من الآية 17إلى آخر السورة "وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى (17) ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ (19) إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ" وقد أجمعوا أنها نزلت في أبي بكر.

يقول ابن الجوزي: "الأتقى يعني: أبا بكر الصديق في قول جميع المفسرين"[33] وهو ما نص عليه ابن عطية وغيره[34].

وقد نزلت في أبي بكر إذ أعتق ناسا لم يلتمس منهم جزاء ولا شكورا[35].

---

[31] - رواه مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر الصديق حديث رقم 1028/12.

[32] - رواه أبو داود كتاب الزكاة باب الرخصة في ذلك حديث رقم 1687 والترمذي في السنن: كتاب المناقب باب مناقب أبي بكر حديث رقم3675 وغيرهما.

[33] - ابن الجوزي: عبد الرحمان بن علي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط 1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1422 هـ، 455/4.

[34] - ينظر: ابن عطية: أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1422 هـ، 492/5.

[35] - الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط 1، مؤسسة الرسالة، 2000م، 480/24.

أعتق هؤلاء الضعاف والنساء الذين لا يستطيعون نصره إذا أريد بسوء، ولا منع ظهره إذا دارت عليه الدوائر، وقد كان الناس يحمون ظهورهم ويقوون شوكتهم بمواليهم، لأنه أبو بكر الصديق العارف بالله الموقن بأن القوة لله جميعا، وأن الحفظ بيده سبحانه، وأن العبد إذا كان لله كما يريد كان الله له كما يريد، قال ابن الزبير: كان أبو بكر يشتري الضعفة من العبيد فيعتقهم، فقال له أبوه: يا بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك، فقال: منع ظهري أريد فنزلت هذه الآية.[36] فكان جزاء الإخلاص "ولسوف يرضى" وهي جواب قسم مضمر أي: والله لسوف نجازيه فيرضى، وهو وعد كريم لنيل جميع ما يبتغيه على أفضل الوجوه وأكملها إذ به يتحقق رضاه [37].

هكذا يعطي أبو بكر ماله في سبيل الذي استخلفه فيه، والذي بيده كل شيء، طلبا لرضاه والقرب منه "وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا"[38] فلا رياء ولا سمعة ولا تفاخر ولا بطر ولا استعلاء، لذلك استحق أن يصفه ربه العليم به ب"الأتقى" ويعده ووعده حق أنه سيعطيه حتى يرضى.

الموضع الثاني: قوله تعالى (وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(النور: 22).

وسبب نزولها أن أبا بكر رضي الله عنه كان ينفق على مسطح بن أثاثة المطلبي، إذ كان ابن خالته ومن فقراء المهاجرين، فلما علم بخوضه في قضية الإفك أقسم أن لا ينفق عليه. ولما تاب مسطح وتاب الله عليه لم يزل أبو بكر واجدا في نفسه على مسطح مانعا عنه العطاء فنزلت هذه الآية[39].

---

[36] - الرازي: فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 311420 هـ، /188.

[37] - ابن عجيبة: أبو العباس البحر، المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، نشره الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، 1419 هـ، 314/7.

[38] - سورة الإنسان الآيتان 8 و9.

[39] - ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر، 1984 هـ، 189/18.

وقد وصف الله أبا بكر ب"أولي الفضل والسعة " وأولوا: بلفظ الجمع دلالة على علو شأنه، والإفضال وهو كل ما يعطي لا لعوض إلا جزاء ربه كما سبق في الموضع الأول، و" السعة "ولا يكون الإنسان موصوفا بالسعة إلا إذا كان جوادا بذولا[40].

وكما أدب الله في آيات قبلها أهل الإفك ومن سمع كلامهم، كذلك عاتب أبا بكر لما آل على نفسه من منع مسطح العطاء، فما أن سمع عتاب ربه حتى هرع "إلى بيته وأرسل إلى مسطح وأصحابه، وقال قبلت ما أنزل الله على الرأس والعين، وإنما فعلت بكم ما فعلت إذ سخط الله عليكم، أما إذا عفا عنكم فمرحبا بكم، وجعل له مثلي ما كان له قبل ذلك اليوم"[41]

وقال مجيبا ربه في قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم " أحب أن يغفر الله لي"[42] فعفا وصفح وكان ثاني اثنين في كل فضيلة وخلق. إنه الارتباط بالخالق والتخلق بأسمائه، إنها العقيدة التي تصفي النفس والروح وتطهر الظاهر والباطن، هي القوة المفجرة للمواقف العظيمة والطاقات، المحددة للسلوكيات، المنظمة للأخلاقيات، الداعية إلى الامتثال والتسليم لله العظيم، لذلك يكثر أن ينادي الله تعالى بوصف الإيمان قبل أن يأمر أو ينهى، قال تعالى في سورة البقرة الآية 278: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ " وقال تعالى في الآية الأولى من سورة المائدة: " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ".

ثالثًا: إدارة أبي بكر للمال في فترة خلافته:

لقد بنيت إدارة أبي بكر الصديق للمال في خلافته على مجموعة من الركائز والأسس منها:

الحسبة المالية:

لقد عرف العلماء الحسبة تعريفات متنوعة لكنها جميعا تدور في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. [43] ولقد جعل الصديق من أول واجباته النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، فعن قيس ابن حازم قال: قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أيها الناس إنكم تقرؤون هذه

[40] - الرازي: فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربي 1420 هـ، 350/23.

[41] - المصدر نفسه 348/23.

[42] - مجاهد بن جبر، التفسير، تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، ط 1، القاهرة، دار الفكر الإسلامي الحديثة، 1410 هـ - 1989 م، ص 490.

[43] - ينظر: الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد، الأحكام السلطانية، تحقيق: أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، 1427ه/2006م ص240.

الآية" يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ" [المائدة: 105] وإنا سمعنا رسول الله صلى اله عليه وسلم يقول: "إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه أوشك أن يعمهم الله بعقابه."[44] لذلك فقد نهج سبيل النبي صلى الله عليه وسلم في مراقبة الأسواق مراقبة مباشرة ممارسا الحسبة بنفسه رضي الله عنه، يؤكد ذلك الماوردي بقوله: لقد كان أئمة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم، لعموم صلاحها وجزيل ثوابها، ولكن لما أعرض عنها السلطان، وندب لها من هان وصارت عرضة للتكسب وقبول الرشاوى لان أمرها، وهان على الناس خطرها، ولكن ليس إذا وقع الإخلال بقاعدة سقط حكمها."[45] وإن كانت المصادر لم تنقل حوادث كثيرة عن الصديق فيما يخص قيامه بحسبة السوق، وهذا ربما يرجع إلى أمرين:

- الأمر الأول: ما شهده عهده من ردة للقبائل وزلزلة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- والأمر الثاني وهو الأهم أنه حكم قوما رباهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وترسخت في قلوبهم وعقولهم مبادئ الدين وقيمه، حتى أنه رضي الله عنه لما ولي قال له عمر " أنا أكفيك القضاء فجعله قاضيا فمكث سنة لا يخاصم إليه أحد"[46].

لكن أهم مظهر من مظاهر الاحتساب المالي عند أبي بكر موقفه من مانعي الزكاة، إذ تقوم الحسبة في الإسلام على حفظ الحقوق، سواء أكانت حقوقا لله، أو للعبد، أو مشتركة بينهما كما الزكاة فهي ففيها حق لله، وحق معلوم للسائل والمحروم، ولذلك كان حفظها آكد.

موقف أبي بكر من مانعي الزكاة:

لقد وقف أبو بكر موقف الشدة من أولئك القوم الذين قالوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم: نؤمن بالله ونشهد أن محمدا رسول الله ولكننا لا نعطيكم أموالنا ومنعوا الزكاة، فعزم على قتالهم قائلا: والله لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه، فعن عمر قال: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتد من ارتد من العرب وقالوا: نصلي ولا نزكي، فأتيت أبا بكر فقلت: يا خليفة رسول الله، تألف الناس وارفق بهم فإنهم بمنزلة الوحش، فقال: رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك، جبارا في الجاهلية خوارا في الإسلام، بماذا عسيت أن أتألفهم بشعر مفتعل أو بسحر مفترى، هيهات هيهات، مضى

[44] - رواه أحمد في كتاب مسند العشرة باب مسند أبي بكر ح 30.

[45]- الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد، الأحكام السلطانية، تحقيق: أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، 1427هـ/2006م، ص373.

[46] - ابن الجوزي: عبد الرحمان بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1412 هـ - 1992 م 70/4.

النبي صلى الله عليه وسلم وانقطع الوحي، والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف في يدي وإن منعوني عقالاً، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، قال عمر: فوجدته في ذلك أمضى مني وأحزم.[47] فقوم ما اعوج ورد الناس إلى السبيل القويم، وحفظ للدولة هيبتها وللأمة استقرارها.

وهذا الموقف من أبي بكر مع مانعي الزكاة يدل على مكانة الزكاة في كل عصر ومصر، فهي مورد هام للدولة وتقوم بدور فعال في الارتفاع بمستوى النشاط الاقتصادي، حيث تعمل على توجيه ما توفره من تمويل إلى مختلف مجالات التنمية. وتباشر الزكاة آثارها التنموية المباشرة من خلال محاربة الاكتناز، والعمل على دفع رؤوس الأموال إلى مجالات الاستثمار اللازمة للارتفاع بمستوى النشاط الاقتصادي، فضلاً عن اتساع السوق من خلال الحث على الإنفاق الاستهلاكي بإعادة التوزيع في صالح الطبقات ذات الميل للاستهلاك المرتفع نسبيا[48].

حسبة أبي بكر المالية على الرعية:

لقد اعتمد الصديق في احتسابه هذا على طريقتين: طريقة الوعظ والتزكية والتربية، وطريقة الزجر والردع، حسب حال وجرم المحتسب عليه.

بالموعظة: ذلك أن لتزكية النفوس وربطها بالله وتربيتها على مراقبته سبحانه دور عظيم في حماية المال وتنميته، فصون المال يعتمد على التربية على القيم الأخلاقية والتزكية ثم على القوانين الزاجرة والرادعة والدافعة.

فقد كان يحذر رعيته من الافتتان بالدنيا، فمن خطبه الذي يغلب عليها هذا التحذير: أين الوضاء، الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب؟ قد تضعضعت أركانهم حين أخنى بهم الدهر وأصبحوا في ظلمات القبور! الوحا الوحا ثم النجاء النجاء[49].

---

[47] - السيوطي: عبد الرحمان بن أبي بكر جلال الدين، تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، ط 1، مكتبة نزار مصطفى الباز 1425هـ 2004م، ص 59-60.

[48] - مشهور نعمت عبد اللطيف، الزكاة الأسس الشرعية والدور الإنمائي والتوزيعي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1993م، ص 346.

[49] - الأصفهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، القاهرة، السعادة - بجوار محافظة مصر، 1394هـ - 1974م، 34/1.

وربما أشعرهم بأن الرزق ليس هو المال فقط، فعن أوسط بن عمرو قال: قدمت المدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنة، فألفيت أبا بكر يخطب الناس على المنبر، قال: " قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام أول، فخنقته العبرة، ثلاث مرات، ثم قال: يا أيها الناس، سلوا الله المعافاة فإنه لم يؤت أحد مثل يقين بعد معافاة"[50] حتى تهفو نفوسهم إلى ما هو أعظم من المال فتطلبه، وتزهد في الدنيا إذا رزقها الله العافية واليقين فذاكم هو الغنى لو تفطن الناس.

ومن عظيم حرصه على حفظ أموال رعيته، أنه أصابه الأرق من أجل مولود ما نال من إرث أبيه شيئا، فقد قسم سعد بن عبادة ماله بين بنيه في حياته، فولد له بعدما مات، فلقي عمر أبا بكر فقال: ما نمت الليلة من أجل ابن سعد هذا المولود لم يترك له شيئا، فقال أبو بكر: وأنا والله، انطلق بنا إلى قيس بن سعد نكلمه في أخيه، فأتياه فكلماه فقال قيس: أما شيء أمضاه سعد فلا أرده أبدا، ولكن أشهدكما أن نصيبي له[51].

قد يظن أن دور الإمام الحفاظ على المال العام مال الأمة، ولا دخل له في أموال الناس الخاصة، والحق أن حفظ مال الأمة لا يتم إلا بحفظ أموال الأفراد، يعلل ذلك الطاهر بن عاشور بقوله: لأن مال الأمة لما كان كلاً مجموعا، فحصول حفظه يكون بضبط أساليب إدارة عمومه، وبضبط أساليب حفظ أموال الأفراد وأساليب إدارتها فإن حفظ المجموع يتوقف على حفظ جزئياته، وإن معظم قواعد التشريع المالي متعلقة بحفظ أموال الأفراد وآيلة إلى حفظ مال الأمة، لأن منفعة المال الخاص عائدة إلى المنفعة العامة لثروة الأمة، فالأموال المتداولة بأيدي الأفراد تعود منافعها على أصحابها وعلى الأمة كلها، لعدم انحصار الفوائد المنجزة إلى المنتفعين بدوالها[52].

بالزجر قولا أو فعلا: فعن قيس بن أبي حازم قال: إني لجالس عند أبي بكر الصديق خليفة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة النبي بشهر إذ مر بفرس فعرضت عليه، فقام رجل من الأنصار فقال: يا خليفة رسول الله احملني على هذا الفرس، فقال: لا ها الله ذا[53] لا أحملك عليها إنك رجل

---

[50] - ابن حنبل: أحمد بن حنبل الشيباني، الزهد، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، ط 1، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، 1420 هـ - 1999 م، ص 90.

[51] - الطبراني: سليمان بن أيوب، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط 2، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، 347/18.

[52] ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر1425 هـ - 2004 م، 460/3.

[53] - قال الخطابي فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر هكذا يروونه، والهاء فيه بمنزلة الواو والمعنى:" لا والله يكون ذا " ينظر: العسقلاني: أحمد بن علي "ابن حجر"، فتح الباري، بيروت، دار المعرفة، 38/8.

موسع في المال، وإن هاهنا لمن هو أحق بها منك، ثم عاد إليه فسأله ثلاث مرات حتى أغضبه فقال له أبو بكر: والله لأن أحمل غلاما قد ركب الخيل على غرلته أحب إلي من أن أحملك عليها[54].

فنظرة أبي بكر لحفظ المال لم تقتصر على النّصائح الأخلاقيّة في المجال الاقتصادي، بل دعم ذلك وأكمله، بقواعد رادعة شرعها الإسلام، تنظم العلاقات المالية، وتحدّد الحقوق، وتفرض الواجبات. فقد روى أبو يوسف أن أبا بكر وعمر كانا يعاقبان في الغلول عقوبة موجعة[55].

التواضع والرحمة:

لم يكن غنى أبي بكر في الجاهلية دافعا للاستعلاء على الناس والطغيان والافتخار، بل كان المتواضع الرحيم كما سبق ذكره في المبحث الأول، ولما أصبح خليفة للمسلمين، ما زاده المنصب إلا تواضعا ورحمة بالناس، فعن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أنه قال: "ولينا أبو بكر فخير خليفة، أرحمه بنا وأحناه علينا"[56] وكان نقش خاتمه عبد ذليل لرب جليل"[57]. وما ذاك إلا لعلمه رضي الله عنه أن الملك المطلق والملكية المطلقة هي لله، وأن الكون بما فيه ومن عليه، ملك للحق سبحانه، أفبعد ذلك يتكبر المتكبرون، ويستعلي على الناس أهل الدثور.

وينقل ابن الأثير نصا رائعا يدل على تواضع ورحمة الصديق برعيته فيقول: وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا يحلب لنا منائحنا. فسمعها أبو بكر فقال: بلى، لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه. فكان يحلب لهم، فربما قال للجارية: أتحبين أن أرغى لك أو أن أصرح؟ فربما قالت: أرغ. وربما قالت صرح فأي ذلك قالت فعل [58].

---

[54] - المروزي، مسند أبي بكر الصديق، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي – بيروت، ص 160 و161.رقم 91.

[55] - القاضي أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم، الخراج، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، سعد حسن محمد، المكتبة الأزهرية للتراث، ص 188.

[56] - ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله النمري، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط1، بيروت دار الجيل1412 هـ - 1992م، 972/3.

[57] - المصدر نفسه 977/3.

[58] - ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين، أسد الغابة، بيروت، دار الفكر، 1409هـ - 1989م، ص422.

ومعلوم أنه إذا خلت الإدارة المالية من ركيزتي الرحمة والتواضع صار المال نقمة وعذابا لا نعمة وأمنا كما أراد الله، فالرحمة تقتضي من الولي السعي الحثيث إلى تحقيق حسنتي الدنيا والآخرة للرعية وتحقيق الرفاهية للناس.

العدل:

لما كان العدل ميزان الله في الأرض سواء كان في الأحكام أو في المعاملات فقد عمل أبو بكر الخليفة الراشد على تحقيق العدل بين رعيته، لا فرق بين السيد والمولى والعبد، قال أبو قرة: قسم لي أبو بكر كما قسم لسيدي[59]. بل كان من سياسته أنه لا يفرق في الأعطيات بين السابقين البدريين وغيرهم، فقد أخرج أحمد في الزهد عن إسماعيل بن محمد: أن أبا بكر قسم قسما فسوى فيه بين الناس فقال له عمر: تسوي بين أصحاب بدر وسواهم من الناس؟ فقال أبو بكر: إنما الدنيا بلاغ، وخير البلاغ أوسعه، وإنما فضلهم في أجورهم[60]. وكان عمر يرى أن تمام العدل عدم التسوية بين السابقين وغيرهم وهذا ما عمل به أيام خلافته رضي الله عنه، ولكل من الشيخين تدبير قاده إليه اجتهاده وتحريه العدل في رعيته.

ومن سياسته أنه لا تأتيه الأموال حتى يفرقها بين الناس دون أن يدخر في بيت المال منها شيئا، فقد كان له بيت مال بالسنح ليس يحرسه أحد، فقيل له: ألا تجعل عليه من يحرسه؟ قال: عليه قفل، فكان يعطي ما فيه حتى يفرغ، فلما انتقل إلى المدينة حوله فجعله في داره، فقدم عليه مال، فكان يقسمه على فقراء الناس فيسوي بين الناس في القسم، وكان يشتري الإبل والخيل والسلاح فيجعله في سبيل الله، واشترى قطائف أتى بها من البادية ففرقها في أرامل المدينة، فلما توفي أبو بكر ودفن دعا عمر الأمناء ودخل بهم في بيت مال أبي بكر منهم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، ففتحوا بيت المال فلم يجدوا فيه شيئًا لا دينارًا ولا درهما[61]، قال السيوطي معقبا على هذا الأثر: وبهذا الأثر يرد قول العسكري في الأوائل: إن أول من اتخذ بيت المال عمر، وإنه لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم بيت مال، ولا لأبي بكر وقد رددته عليه في كتابي الذي صنفته في

---

[59] البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين، معرفة السنن والآثار، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، ط 1، حلب – دمشق، دار الوعي، 1412هـ - 1991م، 280/9، رقم 13175.

[60] - ابن حنبل: أحمد بن حنبل الشيباني، الزهد، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، ط 1، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، 1420 هـ - 1999 م، ص 91، رقم 570.

[61] - ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، ط 1، بيروت، دار صادر1968 م، 213/3.

الأوائل، ثم رأيت العسكري تنبه له في موقع آخر من كتابه، فقال: إن أول من ولي بيت المال أبو عبيدة بن الجراح لأبي بكر[62].

الزهد:

إذا كانت أوربا الحديثة تتباهى بتواضع سادتها وساستها وانغماسهم في مشاكل قومهم ومعايشتهم إياهم عن قرب، فقد كان في جوف الصحراء العربية قبل مئات السنين رجل يقود الإسلام والمسلمين لدولة تكاملت أركانها على القوة والرسوخ، يحمل على كتفيه النحيلتين غرارة مملوءة بأنواع أقمشة الشام، وربط اليمن أو ديباج الحبشة والهند، يذهب بها إلى السوق ليتاجر فيها، فيكسب ما يذهب عنه غائلة الجوع هو وأهل بيته[63] فلقيه عمر وهو ذاهب إلى السوق، فقال: أين تريد يا خليفة رسول الله؟ قال: السوق، قال: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ قال: انطلق، يفرض لك أبو عبيدة، فانطلقا إلى أبي عبيدة، فقال: أفرض لك قوت رجل من المهاجرين، ليس بأفضلهم ولا أوكسهم، وكسوة الشتاء والصيف إذا أخلقت شيئا رددته وأخذت غيره، ففرضا له كل يوم شطر شاة، وما كساه في الرأس والبطن [64].

إن واجبات الإمام كثيرة وتستدعي التفرغ التام لتدبير شؤون الرعية، وهو كغيره من الناس في حاجة إلى المال لمأكله ومشربه وخدمه وعياله ونحو ذلك، ومما سبق من قصة أبي بكر يتضح أن للإمام أن يأخذ من مال المسلمين راتبا معينا يسد به حاجته ومن يعول من غير إسراف ولا تقتير، وقد أثبت النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحق لمن ولي ولاية من إمارة أو غيرها وإن كان موسرا، فقد روى البخاري بسنده إلى حويطب بن عبد العزى أخبره " أن عبد الله بن السعدي أخبره أنه قدم على عمر في خلافته فقال له عمر: ألم أحدث أنك تلي من أعمال الناس أعمالا فإذا أعطيت العمالة كرهتها؟ فقلت: بلى فقال عمر: ما تريد ذلك؟ قلت: إني لي أفراسا وأعبدا وأنا بخير، وأريد أن تكون عمالتي صدقة على المسلمين، قال عمر: لا تفعل فإني كنت أردت الذي أردت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء فأقول أعطه أفقر إليه مني، حتى أعطاني مرة مالا فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: خذه فتموله وتصدق به فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه وإلا فلا تتبعه نفسك[65]. قال الحافظ ابن حجر: قال الطبري:

---

[62] - السيوطي: عبد الرحمان بن أبي بكر جلال الدين، تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، ط 1، مكتبة نزار مصطفى الباز 1425هـ 2004م، ص 64.

[63]- المودودي: أبو الحسن، 1372ه، مبادئ الإسلام، المطبعة الهاشمية، ص 20-21.

[64]- الطبقات لابن سعد 184/3.

[65] - رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب رزق الحكام والعاملين عليها، رقم 6744.

"في حديث عمر الدليل الواضح على أن من شغل بشيء من أعمال المسلمين أخذ الرزق على عمله ذلك[66].

ثم إن الصديق رأى أن ما فرض له لا يكفيه وأهله وكان الصدق صفة من أبرز صفاته رضي الله عنه فطلب الزيادة من أهل الحل والعقد، فقد أخرج ابن سعد عن ميمون قال: لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين، فقال: زيدوني فإن لي عيالا وقد شغلتموني عن التجارة، فزادوه خمسمائة.[67] وفعله هذا لا يتنافى مع الزهد الذي عرف عنه، والحرص على أموال المسلمين الذي سبق بيانه، وهذا ما يستشف مما روي أن زوجته اشتهت حلوى فقال: ليس لنا ما نشتري به، فقالت: أنا أستفضل في عدة أيام ما نشتري به. قال: افعلي، ففعلت ذلك، فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير، فلما عرفته ليشتري به حلوا أخذه، فرده إلى بيت المال، وقال: هذا يفضل عن قوتنا، وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم، وغرمه لبيت المال من ملك كان له. يقول عز الدين ابن الأثير معقبا: هذا والله هو التقوى الذي لا مزيد عليه وبحق قدمه الناس رضي الله عنه وأرضاه.[68] فتقديم مصلحة الأمة عنده رضي الله عنه لا تعني الإخلال بمصلحة أهله الواجب حفظها وهم من الأمة، فلما رأى أنهم مكتفون رد ما فضل لبيت المال فأكرم بها من رؤية موازنة ووسطية.

وكان رضي الله عنه لا يخلط بين ماله الخاص والمال العام، فأوصى بماله الخاص أن يقسم بشرع الله، مبينا أن المال لله وإليه يعود، أخرج مالك عن عائشة رضي الله عنها: أن أبا بكر نحلها جداد عشرين وسقا من ماله بالغابة، فلما حضرته الوفاة قال: يا بنية، والله ما من الناس أحد أحب إلي غنى منك، ولا أعز علي فقرا بعدي منك، وإن كنت نحلتك جداد عشرين وسقا، فلو كنت جددته واحترزته كان لك، وإنما هو اليوم مال وارث، وإنما هو أخواك وأختاك فاقسموه على كتاب الله، فقالت: يا أبت! والله لو كان كذا وكذا لتركته، إنما هي أسماء، فمن الأخرى؟ قال: ذو بطن ابنة خارجة، أراها جارية[69] وكذلك كانت.

أما المال العام فأمر أن يرد لمن استخلفه، فقد قال لما احتضر لعائشة رضي الله عنها: يا عائشة! انظري اللقحة التي كنا نشرب من لبنها، والجفنة التي كنا نصطبغ فيها والقطيفة التي كنا

---

[66] - العسقلاني: أحمد بن علي "ابن حجر"، فتح الباري، بيروت، دار المعرفة، 154/13.

[67] - ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، ط 1، بيروت، دار صادر 1968 م، 185/3.

[68] - ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، 1417هـ / 1997م، 266/2.

[69] - رواه مالك في الموطأ، كتاب الأقضية، باب ما لا يجوز من النحل، رقم 1432.

نلبسها! فإنا كنا ننتفع بذلك حين كنا نلي أمر المسلمين، فإذا مِتُّ فارديه إلى عمر، فلما مات أبو بكر أرسلت به إلى عمر فقال عمر: رحمك الله يا أبا بكر! لقد أتعبت من جاء بعدك [70]. حقا لقد أتعب أبو بكر بزهده وعدله الخلفاء بعده. وانظر إلى منتهى الورع فيما روته الصديقة عن أبيها قالت: كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج وكان أبو بكر يأكل من خراجه فجاء يوما بشيء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر وما هو؟ قال كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته فلقيني فأعطاني بذلك فهذا الذي أكلت منه فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه.[71] قال ابن سيرين: لم أعلم أحدا استقاء من طعام أكله غير أبي بكر[72].

الخاتمة:

بعد هذه المحطات والوقفات مع الجوانب المالية في سيرة الصديق -رضي الله عنه- هذه أهم النتائج المتوصل إليها:

- لقد بنيت فلسفة أبي بكر الصديق على مجموعة من الركائز والأسس منها: الاحتساب والرحمة والزهد والتوازن، ووجهت بمبدإ الاستخلاف.
- نظرة أبي بكر لحفظ المال لم تقتصر على النّصائح الأخلاقية في المجال الاقتصادي، بل دعم ذلك وأكمله بقواعد تنظم العلاقات المالية، وتحدد الحقوق، وتفرض الواجبات وتعاقب المخل.
- وازن الصديق في فلسفته في المال بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ومصلحة الدولة وبين مصلحة الأغنياء ومصلحة الفقراء في توازن مبدع، وانسجام بديع، وتكامل رائع وحركة رائدة.
- بنى الصديق رؤيته المالية على نصوص الوحيين، متشبعة بروح الشريعة ومقاصدها، محكومة بالزهد والورع، وموازية بين النظرة إلى المال باعتباره شهوة وفتنة واعتباره قواما للحياة ولبناء الدولة.
- فلسفة أبي بكر في المجال المالي هي فلسفة مقاصدية بامتياز، تسعى لتحقيق الاستخلاف وعمارة الأرض، وحفظ المال وتحقيق رسالته التكافلية والاجتماعية داخل المجتمع الإنساني.

---

[70] - أخرجه الطبراني في الكبير رقم 38، 60/1.

[71] - رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية، رقم 3842.

[72] - ابن حنبل: أحمد بن حنبل الشيباني، 1420 هـ - 1999م، الزهد، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، ط 1، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية ص 91.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

- الأحكام السلطانية للماوردي، تحقيق: أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، 1427هـ/2006م.

- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة 1388هـ/1968م.

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ - 1992م.

- أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين ابن الأثير، دار الفكر، بيروت، 1409هـ /1989م.

- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت ط 1، 1415هـ.

- إصلاح المال لأبي بكر بن أبي الدنيا، تحقيق مصطفى القضاة، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط 1 سنة 1990م.

- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأبي العباس بن عجيبة الحسني، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، نشره الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة 1419هـ.

- البناء المقاصدي للبحث العلمي في الإقتصاد الدكتور محمد رفيع، المؤتمر الدولي السابع للإقتصاد الإسلامي، جامعة الملك عبد العزيز شتنبر 2007م.

- تاريخ الخلفاء للسيوطي تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط 1، 1425هـ 2004م.

- تاريخ دمشق لأبي القاسم ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415 هـ 1995م.

- التحرير والتنوير أو "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" ، لابن عاشور، الدار التونسية للنشر بتونس، سنة 1984م.

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، 1420هـ /1999م.

- تهذيب الأسماء واللغات للنووي، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية بيروت 1998م.

- جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1420 هـ - 2000م.

- الخراج لأبي يوسف القاضي، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، سعد حسن محمد، المكتبة الأزهرية للتراث، 1999م.

- الرياض النضرة في مناقب العشرة لمحب الدين الطبري، دار الكتب العلمية، ط 1، 1984م.

- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط 1، 1422 هـ.

- سنن أبي داود لأبي داود السجستاني، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، 1951م.

- سير أعلام النبلاء للذهبي، مؤسسة الرسالة، تحقيق: بشار معروف عواد، ط 2، 2001.

- السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير) تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان.

- الجامع الصحيح لأبي عبد الله البخاري، تحقيق محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة ط 1 سنة 1422ه.

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني، السعادة - بجوار محافظة مصر، 1394هـ - 1974م.

- صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم النيسابوري، تحقيق فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- الطبقات لابن سعد الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ط 1، 1968 م.

- عبقرية الصديق للعقاد منشورات المكتبة العصرية بيروت.

- القيم الأخلاقية في السياسة المالية الإسلامية، السيد عطية عبد الواحد، المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

- لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن، ت: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1، 1415

- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، ط3، 1414ه.

- المال والحكم في الإسلام، لعبد القادر عودة، المختار الإسلامي للطباعة والنشر، ط 5 سنة 1977م.

- مبادئ الإسلام، لأبي الأعلى المودودي، المطبعة الهاشمية، سنة 1372ه.

- المدخل إلى الاقتصاد الإسلامي لمحيي الدين القره داغي، دار البشائر الإسلامية، ط2 سنة 2013م.

- مسند أبي بكر الصديق لأبي بكر المروزي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي، ط4 سنة 1986م.

- مصنف عبد الرزاق، تحقيق عبد الرحمان الأعظمي، المجلس العلمي بالهند، ط1 سنة 1392ه

- معالم التنزيل في تفسير القرآن لمحيي السنة البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط 1، 1420 هـ.

- المعجم الكبير للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط 2.

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1412 هـ - 1992م.

- الزكاة الأسس الشرعية والدور الإنمائي والتوزيعي للدكتور نعمت عبد اللطيف مشهور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1993م.